القصة القرآنية
في الفكر الحداثي

إعداد

لبنه مترك الدوسري

من 915 إلى 944

تمهيد

القصة لها من الوقع على النفس والقلب ما لها، فهي إحدى الوسائل التربوية التي يستخدمها الدعاة إلى الله تعالى في دعوتهم، وهي منهج قرآني متفرد يحاكي واقعنا الذي نعيشه، ويعالج كثيراً من هموم حياتنا التي نعانيها، فالقصة القرآنية بدقتها وإحكامها تطرق أبواب الآذان لتدخل دون استئذان، وتنفذ إلى القلوب بسهولة ويسر، وتستريح الأنفس عند سماعها، ولا يمل السامعون لها مع كثرة تكرارها وترددها، وإنما تشعر وكأنك تسير وسط حديقة غنّاء تستنشق عبير أزهارها، وتستمتع بعبق رياحينها.

ونظراً لهذه الأهمية لقصص القرآن الكريم أردت في الصفحات التالية أن أسلّط الضوء على تعامل التيار الحداثي[1] أو أصحاب القراءة المعاصرة – كما يدّعون – مع القصص القرآني، هل تناولوه حسب مراد الله تعالى؟ أم أنهم تجاهلوا هذا المراد أم ماذا؟ هذا ما سنفرده في بحثنا بحياد وموضوعية دون تجنّي على أحد، وإنما ننقل كلامهم من كتبهم بكل دقة وأمانة.

وحتى ننطلق من أرض ثابتة في التعرف على أهداف رموز القراءة المعاصرة من خلال هذا التعامل، لا بد أن نبين مفهوم القصة القرآنية وأهدافها ومميزاتها كما استنبطها علماء الإسلام من خلال استقراء آيات القرآن الصريحة،

---

(1) التيار الحداثي: حركة فلسفية دينية نشأت في الغرب، هدفها تفسير التراث حسب أهوائهم، قامت في الأصل على نقد الكتاب المقدس، ثم انتقلت إلى الشرق لنقد القرآن الكريم، وأفكارها مستوردة، سُطِّرت بأقلام عربية المسمى غربية المعتقد والهوى، مقصدها الأساس الهدم والتخريب، والثورة على القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي، والعقائد والأخلاق بحجة التجديد والمعاصرة، وهو مصطلح يحمل في طياته ألغام توشك أن تحطم كل الثوابت الدينية.

ونطقت بها أحاديث السنة الصحيحة، ثم نشرع في آليات تعامل هذا التيار مع القصة القرآنية.

تعريف القصة في اللغة:

القصة في معاجم اللغة مأخوذة من " قصّ يقصُّ قصاً، وقصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء"[1]، وأصل القصة: المتابعة، لأن القاصّ يتبع الخبر، ومنه قول الله تعالى:" وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ" [القصص: ١١]، أي تتبعي أثره، وجاء بهذا المعنى أيضاً في قوله تعالى:" فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا"[الكهف: ٦٤]، أي رجعا على آثار سيرهما [2]، وقَصَّ الْخَبَرَ" إِذَا حَدَّثَ بِهِ عَلَى أَصَحِّ الْوُجُوهِ وَأَصْدَقِهَا، لِأَنَّهُ مَنْ قَصَّ الْأَثَرَ وَاقْتَصَّهُ إِذَا تَتَبَّعَهُ وَأَحَاطَ بِهِ خَبَرًا"[3]، والقص: البيان كما في قوله تعالى:" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"[يوسف: ٣]،أي نبين لك أحسن البيان، والقاصّ يجمع على (قُصّاص) بضم أوله[4]، والمتأمل بعد هذا العرض يمكنه القول إن القصة في هذه المعاجم تعطي معانٍ متعددة منها: تتبع الأثر، وحكاية الخبر، ووصف الحال، وبيان المعاني ووضوحها وصياغتها بدقة.

القصة في الاصطلاح:

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة قصص، ج7، ص73 ،74.

(2) انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 15، ص 368.

(3) رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (د.م: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1990م) ج12، ص208.

(4) انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج18، ص98، وانظر: الحموي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير(بيروت: المكتبة العلمية،د.ط،د.ت) ج2، ص505، وانظر: الرازي، مختار الصحاح، ج1، 254.

إذا تتبعنا معنى القصة في اصطلاح العلماء وجدنا أنها:" الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها"[1]، فوقائعها حصلت دون معرفة للغائب عن أحداثها إلا إذا تتبعها، لهذا قيل في معناها :" تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها"[2]، وإلا لكانت مخالفة للواقع.

والقصة القرآنية من أصدق القصص وأحسنها لمطابقتها للواقع، حيث إنها تخبر عـــــــن" أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه"[3]، لتحصل الهداية المرجوة .

والمتمعن في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للقصص يجد ارتباطاً وثيقاً بينهما من حيث الإخبار بصدق والبيان بوضوح والحكاية بنتيجة مستفادة.

أهداف القصة في القرآن الكريم

لم يكن القصص القرآني بما يحويه من تقرير حقائق وإخبار عن مصائر شعوب ومعارك بين الحق والباطل من قبيل الثقافة الباهتة لجموع المسلمين، التي لا يترتب عليها كبير عمل، ولا يتعظوا من خلالها، وإنما سيقت لأغراض متعددة، لابد أن تستقر في قلب كل مسلم من أهمها ما يأتي:

أولاً: تقرير عقيدة التوحيد

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 64.

(2) الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ ، تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، ت: محمادي بن عبد السلام الخياطي (الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ط1، 1997 م) ص594.

(3) القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن (القاهرة: مكتبة وهبه، د.ط، 1995م) ص300

الهدف الرئيس للقصص القرآني هو تثبيت دعائم عقيدة التوحيد في النفوس، وذلك من خلال سرد الدعوة من قِبَل جميع الرسل للإيمان بالله وحده وترك عبادة الأصنام، قال تعالى:

" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" [النحل: ٣٦]، فكل الرسل والأنبياء أساس دعوتهم إرساء حقيقة الوحدانية.

ثانياً: إثبات موثوقية الوحي وصدق الرسالة

إن هدف القصص القرآني التأكيد على حقيقة هذا النبي الأمي الذي" لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عُرف عنه أنه كان يجلس إلى أحبار اليهود، فمن أين أتى بقصة إبراهيم ويوسف وعيسى عليهم السلام، إن ورودها في القرآن اتخذ دليلاً على وحي يوحى، والقرآن ينص على هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو ذيولها ففي أول سورة يوسف، قال تعالى:" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ" [يوسف: ٣]"[1] وفي أواخر السورة يقول:" ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ" [يوسف: ١٠٢].

والآية صريحة في إثبات موثوقية الوحي لأنّ" هذا النبأ غيب لم يعرفه النبي ﷺ إلا بالوحي لأنه لم يحضر إخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا

(1) انظر: قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن (القاهرة: دار الشروق، ط17، 2004م) ص145.

به من أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به"[1]، ومثله ما جرى لمريم عليها السلام وقصته علينا سورة آل عمران ؛ حيث إن رسول الله ﷺ لم يكن موجوداً في عصرها إذ أجمعوا أمرهم فيمن يكفلها " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ" [آل عمران: ٤٤].

ثالثاً: تثبيت فؤاد النبي ﷺ

من أغراض ورود القصص القرآني التثبيت لفؤاده ﷺ لاحتمال ما يعانيه من قومه، وتبليغ رسالة الله تعالى لهم، وسياق قصص الأنبياء مع أقوامهم يحمل رسالة قوية، ويوحي بأنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل الذين صبروا على أذى مدعويهم، وفيها إشارة إلى تشابه قلوب أهل الضلال، لكن المصير هو الخسارة الدنيوية والأخروية، حين يسمع " الرَّسُولُ هَذِهِ الْقِصَصَ، وَيَعَلِمَ أَنَّ حَالَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِمْ مَعَ أَتْبَاعِهِمْ هَكَذَا، يسَهُلَ عَلَيْهِ تَحَمُّلُ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ وَأَمْكَنَهُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ"[2]

وقد صرّح القرآن الكريم بذلك، فقال تعالى:" وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " [هود: ١٢٠].

رابعاً: تفصيل أسباب الهلاك

---

(1) الآلوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ت: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415ه) ، ج7، ص61.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، ج18، ص 412.

ومن أهداف القصص القرآني أيضاً عرض الأسباب التي تؤدي إلى هلاك ودمار العصاة والمعاندين من الأفراد والأمم، وقد تنوعت صنوف الهلاك بسبب نوع المعصية، ومن ذلك ما ورد عن خسف قارون بسبب البغي والبطر والتكبر، حيث قال تعالى:" فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ" [القصص: ٨١]، إذ إنه " لما أشر وبطر وعتى، خسف الله به وبداره الأرض جزاءً على عتوه وبطره"[1].

وأكد القرآن الكريم أيضاً أنّ البطر والظلم من أهم أسباب هلاك الأمم، لهذا قال تعالى:" وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلّا قَلِيلًا وَكُنّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ "[القصص: ٥٨ –٥٩]، فالبطر وعدم الشكر سبب هلاك هذه القرى، كما عدد القرآن الكريم مصائر أقوام هلكوا بسبب ذنوبهم، قال تعالى:" فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"[العنكبوت: ٤٠]، عاقبهم الله عز وجل بجنايتهم، فمنهم من عوقب بالريح العاصف، ومنهم من صاح بهم جبريل عليه السلام كثمود قوم صالح[2]، ومنهم من خسف الله به الأرض جزاء تكبره

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص17.

(2) انظر: الاستنبولي، إسماعيل حقي ابن مصطفى، روح البيان (بيروت: دار الفكر ، د.ط، د.ت) ج6، ص469، وانظر: أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت) ج7، ص40.

كقارون، ومنهم من أغرقه الله كقوم نوح وفرعون[1] فنرى أن الله عز وجل عاقب هذه الأمم بالجزاء الوفاق لما كسبته أيديهم.

خامساً: دعوة للثبات على الحق

ومن أهم الأغراض أيضاً ثبات أهل الحق على حقهم؛ فحين استعرض صلَف المجرمين بَيّنَ ثبات الصالحين الصابرين، كما ورد في قصة أصحاب الأخدود أولئك "الطغاة القساة الذين أرادوا أن يترك المؤمنون عقيدتهم ويرتدّوا عن دينهم، فلما أبوا وثبتوا على الحق؛ شقّ الطغاة لهم شقاً في الأرض وأوقدوا فيه النار وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقاً على مرأى من الجموع التي حشدوها لتشهد مصرع هذه الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة"[2] لهذا قال الله تعالى: " وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" [البروج: ٨]، والقرآن الكريم مليء بهذا القصص الذي يؤكد على ثبات المؤمنين في وجه الباطل.

سادساً: العظة والعبرة:

يضاف لما سبق من أهداف القصة القرآنية الاتعاظ والاعتبار ليتصور القارئ من خلالها ما آل إليه حال الأمم السابقة، فلا يسلك مسلك المجرمين منهم كي لا يحل به ما حل بهم، ومن هنا تحصل العظة والعبرة، قال تعالى:" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [يوسف: ١١١].

جاءت هذه الآية في ختام قصة يوسف عليه السلام، ليعتبر رافضو دعوة النبي ﷺ، حيث تضمنت تهديداً لهم" بأن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا

---

(1) انظر: النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ت: يوسف علي بديوي (بيروت: دار الكلم الطيب، ط1 ، 1998م) ج2، ص677.

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج6، ص3871.

يتعذَّر عليه فعلُ مثله بمحمد، فيخرجه من بين أظهُرِكم، ثم يظهره عليكم، ويمكّن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرَّت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والدهور والأزمان"[1]، فليتعظ العقلاء بهذا السرد القصصي الذي جاء في سياق تقرير الحقائق الواقعية.

والقصة القرآنية تهدف إلى مضامين تربوية وأهداف كثيرة، ليس هذا مجال حصرها، وإنما أردت الإشارة لبعضها كي يدرك القارئ عظمة القرآن الكريم، الذي يعج بهذا القصص الرائع، ولتكون أيضاً هذه مقدمة يرتكز عليها المسلم في مواجهة الفكر الحداثي.

مميزات القصص القرآني

إن القصص القرآني دون غيره من القصص تميّز بجملة من الميزات نذكر منها أنه:

أولاً: واقعيّ.

الواقعية تعني أن القصة القرآنية حقيقة لا تجنح للخيال، ولم تعرف الأسطورة والخرافة، ولهذا يتولد منها رسوخ الفكرة، وفهم العبرة، والوصول إلى الحق، والتاريخ خير شاهد على آثار الأمم الغابرة، فبعد تكذيب قريش للنبي ﷺ أخبره الله تعالى أنه ليس بدعاً من الرسل والأنبياء، فقال مهدداً لهؤلاء:" وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ "[الحج: ٤٢- ٤٤].

(1) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج16، ص312، وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ) ج3، ص289.

ثم بيّن عقوبتهم التي خلّفت آثاراً ليتعظ الناس فقال:" فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"[الحج: ٤٥- ٤٦].

ثانياً: فيه تكرار للقصة

المتأمل في القرآن الكريم يجد تكراراً في قصصه، مثل قصة إبراهيم وقصة موسى عليهما السلام، وغيرهما من قصص الأنبياء وأخبار الأمم، والسر في التكرار هو إبراز حقيقة أن كل الرسل قد جاءوا بقضية التوحيد ليبلغوها للناس:" فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ"[المؤمنون: ٣٢]، كما أن التكرار لم يكن للقصة بكاملها؛ وإنما يتناول بعضها بغرض العبرة والعظة، وترسيخ المضامين التربوية.

وإذا قارنا بين تكرار القصة في القرآن الكريم وتكرارها في الأناجيل الأربعة اتضح للقارئ الكريم الفرق الشاسع بين الهدف من التكرار في المصدرين، ولنأخذ على ذلك مثالاً قصة قيامة المسيح حيث ادعت الأناجيل أن المسيح دُفن يوم الجمعة، ثم قام من بين الأموات يوم الأحد، وبغض النظر عن فساد المعتقد إلا أن تناول الحدث بعد دفنه – حسب اعتقادهم – فيه تضارب وتناقض حيث جاء في " رواية إنجيل متى أن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب التقتا بملاك الرب (جبرائيل) عند قبر يسوع ، بينما تختلف هذه الرواية عنها في إنجيل مرقس إذ جاء أن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب كانت معهما امرأة تدعى " سالومة – والدة اثنين من تلاميذ المسيح – فرأين شاباً يجلس وعليه ثوباً أبيضاً وليس ملاكاً (مرقس: 16 / 5) ، وجاء في إنجيل لوقا أنهن لقين رجلان بثياب برّاقة (لوقا: 24 / 4) ، أما رواية إنجيل يوحنا فانفردت فيها مريم المجدلية بالذهاب إلى قبر يسوع باكر يوم الأحد ولم تلق عنده ملاكاً ولا شاباً ولا

رجلين (يوحنا 20 / 1)، وهذا التناقض يهدم الرواية أصلاً ويثبت أنها من صنع خيالات كتاب الأناجيل"[1].

وإذا كان التناقض حليف القصص التواريخ أو الإنجيلي؛ فإن تكرار القصة الواحدة في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ إنما يأتي ليخدم المحور الرئيس الذي تدور حوله السورة التي سيقت فيها.

ثالثاً: أسلوبه مؤثر

لا شك أن القصص القرآني يتميّز بالتشويق لما يحتوي عليه من وسائل تربوية تمس حياة الناس، وربما تحاكيها، فترى القارئ يعيش بوجدانه أحداثها، ويتفاعل معها كأنه واحدٌ من أفرادها، لهذا " كانت القصة ولا تزال مدخلًا طبيعيًا يدخل منه أصحابُ الرسالاتِ والدعواتِ والهداةُ والقادةُ إلى الناس، وإلى عقولهم وقلوبهم؛ ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه من آراءَ ومعتقداتٍ وأعمالٍ"[2].

وكانت مدخلًا أيضًا لرموز التيار الحداثي مرّروا من خلالها أفكارهم ومعتقداتهم الهدامة، وذلك عن طريق إعادة قراءة القصص القرآني وتفسيرها وتفريغها من مضامينها الحقيقية التي جاءت لتقريرها، وهذا ما سنفصّله في الصفحات التالية.

مفهوم القصة القرآنية عند رموز التيار الحداثي

بعد هذا العرض الذي أصلنا فيه مفهوم وأهداف ومميزات القصة القرآنية؛ يتسنى لنا أن نستعرض ما ذهب إليه الحداثيون عن مفهوم القصة وكيفية تعاملهم معها من خلال ما دونوه في كتاباتهم.

---

(1) عبد الرازق، عماد عطية، الأيام المقدسة في الديانات السماوية الثلاث دراسة مقارنة (القاهرة: رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2016م) ص182.

(2) الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (بيروت: دار المعرفة، ط2، 1975م) ص7.

إن مفهوم القصص عند الحداثيين يختلف حسب موروثاتهم الثقافية، فهذا الحداثي محمد أحمد خلف الله[1] عدّها عملاً أدبياً حيث عرّف القصص بأنه:" ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تصوير القاص لأحداث وقعت من بطل له وجود، لكنها نظمت على أساس أدبي أو عاطفي، فقدم بعضها وأخر آخر، وحذف بعضها، وذكر بعض آخر، أو بولغ في تصويرها إلى الحد الذي يستأثر بعواطف القارئ أو السامع"[2].

ويأتي هذا التصور عند صاحب هذا القول؛ لأن القصص تمثل عنده ألواناً فنية، كـــ

- اللون التاريخي الذي يدور حول الشخصيات التاريخية مثل الأنبياء والمرسلين.
- اللون التمثيلي الذي تقصد الأحداث فيه البيان والشرح والتفسير، ولا يلزم أن تكون أحداثه من الحقائق؛ فقد يكتفى فيه بالفرضيات والمتخيلات.
- اللون الأسطوري الذي يقصد منه غالباً تحقيق غاية علمية أو تفسير ظاهرة وجودية أو شرح مسألة قد استعصت على العقل، والعنصر الأسطوري في هذه الأقاصيص لا يقصد لذاته؛ وإنما يتخذ على أنه الوسيلة والأداة[3].

---

(1) محمد أحمد خلف الله، أديب مصري، ولد عام 1904، وهو من الذين أردوا الشهرة في فترة كان الإلحاد أقصر طريق إليها فأصدر عددا من المؤلفات حشاها به حشوًا، كان أولها كتاب الفن القصصي في القرآن الكريم، ومنها مشكلات حياتنا المعاصرة ، وكتاب القرآن و الدولة ، وكتاب هكذا يبنى الإسلام ، وشارك في كتاب (محمد و القوى المضادة)، توفي عام 1983. انظر: الرومي: فهد، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج1، ص 957.

(2) خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 182.

(3) انظر: المرجع السابق، ص 152-153.

ومنهم من عدّ القصص تطوراً تاريخياً وتفاعلاً إنسانياً ذا معطيات حيث قال:" قصص القرآن يعطينا خط تطور التاريخ الإنساني بالمعرفة والتشريع، أي التفاعل الإنساني مع الوجود الإلهي والكوني بالعقيدة، والتفاعل الإنساني مع التشريع بالسلوك"[1]. وهنا يؤكد نسبة القصص القرآني إلى المعرفة الإنسانية المتطورة – حسب اعتقاده– تاريخياً.

القصة القرآنية بين قبول الحداثيين وردهم لها

اختلفت كلمة الحداثيين في القصة القرآنية حسب قبولهم لها من عدمه، فاتجهت أقلامهم لإفراز مخبوء قلوبهم، وقد انقسموا إلى فريقين: فريق أنكر القصص كليةً، وآخر قَبِلَها لكنّه فرّغها من مضمونها، وجردها من أهدافها.

الفريق الأول الذي أنكرها عِلّتُه في ذلك أنّها.

-1

سطورية

فهي في تصورهم ضرب من الخرافات والأساطير الناتج عن الخيال الإنساني، إذ الأساطير عندهم "مجموعة خرافات وأقاصيص، وموضوعها– إضافة للآلهة – يتناول الأبطال الغابرين وفق لغة وتصورات وتخيلات وتأملات وأحكام تناسب العصر والمكان الذي صيغت فيه، وشكل الأنظمة والمستوى المعرفي.. تشكل ثقافة عصرها، بحيث تبدو ذات خصوصية تربطها ببيئتها ومجتمعها "[2]، فالقصص القرآني حسب ما ذهبوا إليه مرتبط بثقافة زمانه، ولا يصلح لأي زمان آخر.

---

(1) شحرور، الكتاب والقرآن، ص675.

(2) القمني، سيد، الأسطورة والتراث، ص24–25.

وأكد أركون [1] على أن القصص القرآني أسطوري[2]، كما بيّن بعض من اعتقد أسطوريتها سبب إحاطتـــــها بـــ" القداسة من أجل زحزحة الحدث التاريخي لصالح الحدث الأسطوري كما في قصة نوح وعمره المديد، وقصة ناقة صالح التي تعتبر مثالاً للعنف الدنس، وقصة مريم وحملها الأسطوري"[3]، وعلى هذا فالجانب القصصي للأنبياء والصالحين الوارد في القرآن الكريم في نظر الحداثيين كلها من قبيل الخرافات لزحزحة الحقائق التاريخية.

والمطالع لأكثر الكتابات الحداثية التي تناولت بعضاً من القصص القرآني يرى أنهم يصفونها بالخرافة والأسطورية دون خفاء، ومن ذلك صاحب كتاب نقد الفكر الديني الذي أشار إلى قصة طرد إبليس من الجنة فقال متسائلاً:" جاء في القرآن مثلاً أن الله خلق آدم من طين، ثم أمر الملائكة للسجود له فسجدوا إلا إبليس، مما دعا الله إلى طرده من الجنة، هل تشكل هذه القصة أسطورة أم لا؟"[4]، ومثل هذا الطرح يمثل تشويهاً لمعتقدات المسلم.

---

(1) محمد أركون، ولد بالجزائر عام 1928م، حصل على الدكتوراه من السربون سنة1969م، ومعظم مؤلفاته باللغة الفرنسية، منها: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، الفكر الإسلامي قراءة علمية، من الاجتهاد إلى نقد العقل الديني، وتوفى سنة 2010م انظر: السعدي، أحمد، القراءة الأركونية للقرآن، ص23–46، دراسة نقدية، وانظر: العفاني، سيد حسين، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام (جدة: دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، ط1، 2004م) ج2، ص 134.

(2) انظر: أركون، القرآن من التفسير بالموروث، ص 6.

(3) انظر: الربيعو، تركي علي، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، ص47–52.

(4) العظم، صادق جلال، نقد الفكر الديني، ص36.

واستمر هذا الحداثي في التساؤلات التي تؤكد اعتقاده بأن القصص القرآني أسطوري حيث قال:" هل يفترض في مسلم هذا العصر أن يعتقد بوجود كائنات مثل الجن والملائكة وإبليس، وهاروت وماروت ويأجوج ومأجوج، وجوداً حقيقياً غير مرئي باعتبارها كلها في القرآن، أم يحق له أن يعتبرها كائنات أسطورية مثلها مثل آلهة اليونان وعروس البحر والغول والعنقاء؟"[1]، فإنكار وجود الجن والملائكة وإبليس مرهون بعدم رؤيته لها، لهذا يتهم القرآن الكريم بالخرافة، والقصص القرآني بالأسطوري.

كما نرى حداثي آخر يُنكر القصص القرآني مستخدماً أسلوب السخرية والاستهزاء من طريقة العرض القرآني لها فيقول:" لا شك أن أي مؤمن أو أي شاك ستطيب نفسه إن تمكن من تفسير الحكمة الإلهية في إهلاك شعب مقابل ناقة تلدها صخرة!! كما لا جدال أن إيجاد تفسير معقول لإفناء قوم نوح في ضوء المعقول الآني الذي يفرض حرية الاعتقاد، سيكون مريحاً لكثير من النفوس الحيرى والقلقة"[2].

وهذا ما أظهر جهل الرجل وعدم إيمانه بقانون الثواب والعقاب الرباني، فإهلاك قوم صالح عليه السلام ليس مقابل وجود ناقة خرجت من صخرة، وإنما ارتبط هلاكهم بمعاصيهم وتمردهم، وهذا أيضاً ما حدث مع قوم نوح عليه السلام حين عوقبوا بالطوفان.

---

(1) العظم، صادق جلال، نقد الفكر الديني، ص37.

(2) القمني، الأسطورة والتراث، ص27.

ولا نتعجب لأنهم في كتاباتهم يدافعون عن الشيطان، ومن أراد أن يتحقق من صدق كلامي فليراجع كتاب نقد الفكر الديني ليجد عنواناً فرعياً موسوماً بـــــــــــــــ (مأساة إبليس) يثبت فيه صاحبه أن القصة برمتها خرافية حيث قال:" إنني لا أريد معالجة قصة إبليس باعتبارها موضوعاً يدخل ضمن نطاق الإيمان الديني الصرف، ولا أريد أن أتكلم عنه باعتباره كائناً موجوداً وحقيقياً، وإنما أريد دراسة شخصيته باعتبارها شخصية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية وطورها وضخمها خياله الخصب"[1].

وهو بهذا يثبت تناقضه فتارة يتعاطف مع الشيطان بهذا العنوان الذي يوحي بأنه على يقين من وجوده، وتارة أخرى يؤكد أن الشيطان شخصية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية وطورها خياله، فلا ندري هل يحاكم العقلية المسلمة، أم آيات القرآن الكريم؟

ثم نجده يجنح إلى أن مثل هذه القصص من قبيل الأسطورة قائلاً:" لقد اعتدنا أن نقول عن أمر ما إنه من باب الأساطير والخرافات؛ لنحط من شأنه ونبعد أذهان الناس عنه، ولننفي عنه صفات الواقعية والموضوعية، ولنبين أنه مجرد وهم وخيال"[2]، وهذا هو بيت القصيد الذي يهدف إليه هذا التيار الظلامي.

2- أصلها تراث يهودي

بعد اتهامهم للقصة بالأسطورية حاول الحداثيون اختراع فكرة جديدة حيث زعموا أن القصص القرآني مقتبس من التراث اليهودي والمسيحي، وفي

(1) العظم، صادق جلال، نقد الفكر الديني، ص 83.

(2) العظم، صادق جلال، نقد الفكر الديني، ص84.

هذا يقول أركون وهو أحد دهاقنتهم:" إن النص القرآني قد يتأثر بالعديد من النصوص السابقة له كالنص التوراتي والنص الإنجيلي، بل وحتى ما قبل التوراة والإنجيل، وهكذا تتداخل هذه النصوص – أو مقاطع منها – مع النص القرآني، ويستوعبها هذا الأخير حتى تصبح جزءً لا يتجزأ منه"[1].

ويعلل أركون سبب التأثر فيقول:" يوجد في التراث الإسلامي شيء يدعى (قصص الأنبياء) وهي تحتوي على العديد من القصص، ونخص بالذكر منها تلك التي جمعها يهوديان اعتنقا الإسلام وهما كعب الاحبار ووهب بن منبه، وهذه القصص العديدة تشكل الخلفية الأسطورية التي تفسر لنا سبب نزول كل آية من آيات القرآن"[2]، والحق أني أعجب أشد العجب من هذا الحداثي الذي يُلَبّسُ على الناس أمر دينهم عن عمدٍ أو جهل، وأحب أن أؤكد هنا على قضيتين هامتين:

أولاً: ما جاءنا عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما يسمى بالإسرائيليات، وبرغم أن هذا المصطلح لم يتحدث عنه المتقدمون؛ إلا أن المتأخرين اجتهدوا في بيان معناه فقال بعضهم: إنه يعني قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي ، وقد يكون هذا المصدر هو علماء اليهود الذين أسلموا ككعب الأحبار وعبد الله بن سلام [3]، لكن الذي يجهله هذا الكاتب أن

---

(1) أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص40.

(2) أركون، المصدر السابق، ص30

(3) محمد حسين الذهبي، الإســـرائيليات في التفسير والحديث، ص 13، انظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالمملكة العربية السعودية، 2010م، ج1، ص 187 وما بعدها.

الصحابة الكرام لم يكن عندهم من الشغف الذي يجعلهم يسألون من أسلم من أهل الكتاب عن كل شاردة وواردة.

ثانياً: إن موقف الإسلام من هذه الإسرائيليات هو قبول ما يوافقه، ورفض ما يخالفه، والسكوت عما لا طائل من وراءه.

والحق أن الله تعالى أغنانا بكتابه عن سائر الكتب وبسنة نبيه ﷺ عن سائر الشرائع، فلا حاجة لنا فيما في أيدي أهل الكتاب مما وقع فيه التحريف والتبديل، وهذا ما لا يستطيع فهمه أبناء هذا التيار، وسوء الفهم لمقصود القصة هو ما دعا خلف الله يرى أن مقياس صدق القصص القرآني، هو ما ورد عن طريق اليهود والأحبار، واستدل بقول الله تعالى:" فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ " [يونس: ٩٤][1].

لكن استدلاله ناتج عن سوء فهمه لمقصود الآية، إذ إن مقصودها هو: إقامة الحجة على المشركين الذين أصابهم الشك في وقوع هذه القصص، بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وليس المراد أنه عليه السلام هو الذي شك في قصص القرآن، فكأن الله تعالى في الآية الكريمة يقول لرسوله ﷺ:" إسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشك، إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة بتلك الأخبار"[2].

ولعل هذا الخلط عند هؤلاء أتى من التشابه بين القصص في القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة، ونحن لا ننفي هذا التشابه، فلعله من بقايا

---

(1) انظر: خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن، ص52 – 53.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص 284، وانظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج2، ص40.

الوحي الصحيح، ثم إن هذا التشابه لا يطعن في صحة وثبوت أن القصص القرآني من عند الله عز وجل، بل يؤيد هذا الأمر أن القرآن قد نقحها من الأباطيل والخرافات التي فيها تطاول على مقام الأنبياء وسوء أدب معهم، وطعن في عصمتهم، كما أن القصة في القرآن الكريم جاءت متكاملة في أحداثها، خلافاً لما جاءت عليه في الكتب السابقة، التي كان ينتابها القصور، وفقدان بعض الحلقات التي تضع القارئ في حيرة.

3- متناقضة

راحت أقلام أصحاب هذا الاتجاه المنكر للقصص القرآني بإلقاء آخر حجة في إنكاره، وهي حجة التناقض ومفادها أن القصة القرآنية متناقضة؛ لكني أقول: إن حجتهم داحضة، فهذا أحد المنتمين إلى التيار الحداثي يفترض جدلاً صدق القصة القرآنية ليقول: "إن كانت هذه القصة القرآنية صادقة صدقاً تاماً وتنطبق على واقع الكون وتاريخه فلا بد من القول بتناقضها تناقضاً صريحاً مع كل معارفنا العلمية، ولا مهرب عندئذ من الاستنتاج بأن العلم الحديث على ضلال في هذه القضية، وإن لم تنطبق القصة القرآنية على الواقع ماذا تكون إذن، إن لم تكن أسطورة جميلة"[1]، فهذا حاكم القصة القرآنية بناءً على أيديولوجيته وأرضيته المعرفية التي تخلو بالطبع من العلم الشرعي .

ويعضد محمد شحرور [2] ما ذهب إليه صاحب هذا القول حيث دعا إلى:" أن يقرأ الإنسان المعاصر القصص القرآني وفق سقفه المعرفي وعلى ضوء

---

(1) العظم، صادق جلال، نقد الفكر الديني، ص37.

(2) محمد شحرور، أحد رموز القراءة المعاصرة، من مواليد دمشق عام 1938م، حاصل على شهادتي الماجستير عام 1969م والدكتوراة عام 1972في الهندسة المدنية من جمهورية إيرلندا (دبلن)، له العديد من المؤلفات منها: الكتاب والقرآن الذي صدر عام 1990م، وكذلك القصص القرآني في جزأين. انظر: كالو، محمد، القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، ص59، وانظر: الخراشي، سليمان صالح، نظرات شرعية في فكر منحرف (بيروت: روافد للطباعة، ط1 ، 2008م) ص191.

العلم بمختلف موضوعاته"[1]، وهذا الكلام مجّد العقل الإنساني حيث أصبح حاكماً على النصوص القرآنية.

وقبل هذه الدعوة الشحرورية لقراءة القصص حسب السقف المعرفي رأى خلف الله أن القصص القرآني متناقضٌ فذكر أن السبب هو:" إسناده بعض الأحداث لأناس بأعيانهم في موطن، ثم إسناده الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موطن آخر، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف:" قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [الأعراف: ١٠٩]، إذ نراه في سورة الشعراء مقولاً على لسان فرعون نفسه إن هذا لساحر عليم، " قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ " [الشعراء: ٣٤] "(2).

والحق أن الآيتين ليس فيهما تعارض ولا تناقض كما يدّعي، فالملأ وهم السادة من قوم فرعون قالوا كلاماً موافقاً لكلام فرعون ، فهم تشاوروا في أمر موسى عليه السلام كيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، مخافة أن يظهر عليهم ويخرجهم من أرضهم، ومعلوم أن الوزراء والحاشية دائما يرددون كلام الحكام الظلمة، وربما يكون هذا كلامهم – بوصفهم المستشارين – الذي اقتنع به فرعون فذكره في صورة قرار[3]، لكنه الجهل المدقع الذي جعل أصحاب التيار الحداثي يقرأ القصة القرآنية بخلفية ثقافية تمنعه من رؤية الحق وبيان مراد الله تعالى فيها.

ثم ساق خلف الله مثالاً آخر يدلل به على تناقض القصص القرآني حيث قال:" وكذلك نجد في قصة إبراهيم من سورة هود أن البشرى بالغلام كانت

---

(1) شحرور، القصص القرآني،ج1، ص 14–15.

(2) خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 82.

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص409.

لامرأته، بينما نجد البشرى لإبراهيم نفسه في سورة الحجر وفي سورة الذاريات"[1].

ومثاله هذا ليس فيه تناقضٌ، إذ إن توجيه البشارة لامرأة إبراهيم عليه السلام في سورة هود مع ورودها له في سورة الحجر والذاريات لا يقتضي التناقض، وإنما هو إيذان بمشاركتها لإبراهيم حين ورود البشارة، فذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الأخر، وخلاصة القول أن بشارة زوجه بابن تعد بشارة له أيضاً[2]، ثم إنها زوجته التي تشاركه أفراحه وأحزانه.

وهكذا يؤكد هذا الفريق أن القصص القرآني ضرب من الخرافات والأساطير، وأن أصله هو التراث اليهودي، وأنه متناقض، لهذا أنكرها.

أما الفريق الثاني الذي قبل القصص القرآني فتتجلى رؤيته فيما يأتي:

1-أنه قصص أدبي

ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن القصة القرآنية عمل أدبي ناتج عن " تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له، أو بطل حقيقي ولكن أحداثها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي، وربما أضيف إلى الواقع بعض ما لم يقع، إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها من الأشخاص الخياليين"[3].

فهنا نرى أصحاب هذا الرأي يرجعون القصة للتصوير الفني والأسلوب الأدبي الذي أبدعه كاتبه ببراعة، بل إنه "ليس من شك في أن عملية إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به لاعتبارات يراها الخالق جل وعلا تدل على أن

---

(1) خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 82.

(2) انظر: القاسمي، محمد جمال، محاسن التأويل، تحقيق: باسل، محمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418ه) ج6، ص 115.

(3) خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن، ص152.

القصص القرآني عرض أدبي للأحداث والأقوال وليس عرضاً تاريخياً لها؛ ومعنى ذلك أن القصة في القرآن عمل أدبي فني"[1].

إن الإشكال عند هؤلاء هو الخلط بين القصص القرآني على رصانة أسلوبه، ودقة منطقه وروعة بلاغته وبين القصص الأدبي، دون اعتبار لخصوصية القصة القرآنية وما تميزت به عن غيرها من سائر القصص، فلا يخفى على ذي لب أن القصص القرآني يلتزم الغرض الديني والصدق والواقعية على حد سواء، أما القصص الأدبي فلأنه من صنع الخيال البشري فهو قابل للزيادة والنقصان بحسب ما يستدعيه التشويق والإثارة في القصة، فهو لا يلتزم الصدق دائماً.

2- أنه لا يلتزم الصدق التاريخي:

يرى هذا الفريق أن الأحداث التاريخية الواردة في القصص القرآني ليست على حقيقتها، أو ربما حدث بعضها لكن القرآن أضاف البعض الآخر– الذي لم يحدث في الواقع– من باب استكمال القصة، وليس تقريراً لما حدث في الواقع، لهذا قال خلف الله:" إن موازنات المستشرقين والمبشرين بين ما جاء في القصص القرآني من أخبار وما جاء منها في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأخبار والتاريخ يجب ألا تتم، ويجب ألا تكون حتى يثبت قطعاً أن القرآن الكريم قد قصد من عرض هذه الأخبار معانيها التاريخية، وأنه اختار ما اختار من الأشخاص والأحداث والحوار على أساس أن هذا هو الحق وأنه الذي يتمشى مع المنطق التاريخي، أما إذا كان قصد القرآن من قصصه ليس نشر الوثائق التاريخية وليس تعليم التاريخ فإن صنيع المستشرقين والمبشرين يصبح لا

(1) خلف الله، الفن القصصي، ص181.

قيمة له ولا خطر منه"[1]، ويخلص إلى أن " المعاني التاريخية غير مقصودة من القصص القرآني، .. ومن هنا لم تكن صالحة لأن تكون محلاً لاستنباط القضايا التاريخية كما لم تعتبر جزءا من الدين وعنصراً من عناصره نزلت لنتعبد بها أو نؤمن بما فيها من رأي"[2]، والقصص القرآني بهذا القول ليس له صلة بالتاريخ وحقائقه، فالقرآن" قد قص في القصص التي كانت في موطن الاختبار لمعرفة نبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته ما يعرفه أهل الكتاب عن التاريخ، لا ما هو الحق والواقع من التاريخ، وأنه من هنا لا يجوز الاعتراض على النبي عليه السلام وعلى القرآن الكريم، بأن بهذه الأقاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ"[3].

ومفهوم هذا الادعاء أن القرآن أجاب على تساؤلات قريش بما عند أهل الكتاب من علم، لأنه لا يقصد المادة التاريخية الحقيقة، وإنما أراد تصديق محمد عليه السلام بغض النظر عن الحقائق التاريخية الواردة في القصص من عدمها.

وإذا كان محمد خلف الله قد تبنى هذه الفكرة في كتابه الفن القصصي، فإن شحرور يرى رأياً مخالفاً لما ذهب إليه خلف الله فيقول:" ومن خلال نظرنا في التنزيل الحكيم، وقوله تعالى: " إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" [يس: ١٢]؛ فهمنا أن القصص القرآني مجموعة أحداث إنسانية تم تسجيلها بعد وقوعها، كما تم تصنيفها وحفضها في إمام مبين، وأن الحدث الإنساني قبل وقوعه يدخل في عالم الممكنات وبعد وقوعه يدخل في عالم الحتميات– إذ لا رجعة فيه– ويتحول إلى حقيقة تاريخية موضوعية"[4]، ثم أكد على تاريخية القصص القرآني لتقييده بالفترة

---

(1) خلف الله، المرجع السابق، ص253.

(2) خلف الله، المرجع السابق، ص93.

(3) خلف الله، المرجع السابق، ص90–91.

(4) شحرور، القصص القرآني قراءة معاصرة، ج1، ص 21.

الزمانية التي نزل فيها حتى لا يؤخذ منه أحكام ولا تشريع فقال:" آيات القصص القرآني بما فيها القصص المحمدي نصوص تاريخية"[1].

أما الهدف الذي توصل إليه خلف الله، بعد إثبات عدم التزام القصص القرآني بالصدق التاريخي فقد سطره بقلمه قائلاً: "ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري؛ ليبحث ويدقق وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل، ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن؛ لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ"[2].

الذي يسعى إليه من وجهة نظره هو تفوق وفوز العقل على القرآن الكريم في ماراثون السباق النقدي الذي يرجوه أصحاب القراءة المعاصرة، لهذا قال خلف الله عن استخدام العقل في فهم حقائق القصص القرآني ومقصوده:" إن استخراج هذه الحقائق يحتاج إلى نوع معين من الفهم، هو ذلك الذي يجري عليه العمل في تحليل القصص الآن تحليلاً أدبياً"[3]، وهكذا تتكاتف الجهود الحداثية لإيجاد تحليل عصري يخرج القصص القرآني من مضمونه الحقيقي إلى معان أخرى حسب فهم العقول.

لكن القصة القرآنية "ليست عرضاً مجرداً لحقائق التاريخ، بل هي انتقاءٌ لجوانب من التاريخ إيجابية أو سلبية لتحقيق أهداف القصة المرجوة، ولذا نجدها تركز على الرقي المادي، وأسباب القوة، لأن هذه المادة عنصر أساسي رئيس في مقومات هذا الإنسان، ونجدها تركز على ما هو أهم، وهو أن التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية ولا ينفصم عن واقع هذا الإنسان وإنما هو مرتبط

---

(1) أنظر: شحرور، محمد، دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم المنهج والمصطلحات، ص 39.

(2) خلف الله، الفن القصصي، ص275.

(3) خلف الله، المصدر السابق، ص280.

به ارتباطاً وثيقاً، بل هو جزء منه، ولهذا نجد القصة تفصل في أسباب السعادة الروحية وأسباب الرقي المادي حتى تتم السعادة للمؤمنين بهذا القصص، العاملين بتوجيهاته وارشاداته"[1].

ومع هذا فإن رموز التيار الحداثي لا يفهمون هذه المعاني، وإنما مرادهم الطعن في القرآن الكريم وإلقاء الشبه في عقول أبناء الأمة المسلمة، ليفقدوا صلتهم بالقرآن، ومن ثم تنفصم العلاقة بينهما، فيكون عقل المسلم تحت سطوة أصحاب هذه الأفكار.

3- أنه وعظي:

القصص القرآني يتميز بالأسلوب الوعظي الذي جاء على سبيل الثقافة المحملة بالعظات والعبر، لهذا يقول خلف الله: "العقل الإسلامي غير ملزم بالإيمان برأي معين في هذه الأخبار التاريخية الواردة في القصص القرآني، لأنها لم تُبَلّغ على أنها دين يتبع، وإنما بلغت على أنها مواعظ وحكم، ومن هنا يصبح من حق العقل البشري أن يهمل هذه الأخبار أو يجهلها أو يخالف فيها أو ينكرها"[2]، وأكّد على أن القصص القرآني" لم يقصد إلا الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض"[3]، وبهذا حصر الحداثيون الغرض من سوق القصص القرآني في العظة والعبرة أو ما في إطارهما.

وبرغم اختلاف محمد شحرور مع خلف الله في كون القصص تاريخي من عدمه، إلا أنهما اتفقا على كونه يحمل العظة والعبرة، ولا يحمل في طياته تشريعًا،

---

(1) عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، ص46-47.

(2) خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص74.

(3) خلف الله، المصدر السابق، ص 276.

لهذا نرى شحرور يقول:" هناك جزء من القرآن يحتوي آيات القصص القرآني يُعد نصوصاً تاريخية، هذه النصوص تحمل صفة العبرة فقط ولا تحمل أي تشريع فيها، فالأنباء كلها بما فيها أنباء الرسل، ومن ضمنها القصص المحمدي وهي الآيات الواردة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، عبارة عن نصوص تاريخية لا تؤخذ منها أي أحكام شرعية"[1]، والمراد من كونها وعظية فقط، هو عدم استنباط أي أحكام شرعية منها.

لا شك أننا أمام تيار فكري لم يترك سبيلاً لهدم الدين إلا سلكه، وبحثي هذا ما هو إلا محاولة لإعلان صيحة التحذير منه؛ لأنه تغلغل في بلاد المسلمين بدعوى التجديد والمعاصرة.

هذا جهد المقلّ، وإن أصبت فبتوفيق من الله، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت والله المستعان.

(1) انظر: شحرور، دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم المنهج والمصطلحات، ص 39.

المصادر والمراجع

1- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ.
2- أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ت: يوسف علي بديوي، بيروت: دار الكلم الطيب، ط1، 1998.
3- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
4- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت: دار إحياء التراث، ط3، 1420هـ.
5- أحمد بن محمد بن علي الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت.

6- إسماعيل حقي ابن مصطفى الاستنبولي، روح البيان، بيروت: دار الفكر، د.ت.
7- تركي علي الربيعو، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، لبنان: المركز الثقافي العربي، ط1، 1994.
8- زين الدين أبو عبد الله الرازي، مختار الصحاح، ت: يوسف الشيخ محمد، بيروت: المكتبة العصرية، ط5، 1999.
9- سيد القمني، الأسطورة والتراث، القاهرة: المركز المصري لبحوث الحضارة، ط3، 1999.
10-سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، القاهرة: دار الشروق، ط17، 2004.

11–سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ط32، 2003.

12- شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ت: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ.

13- صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 9، 2003.

14- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، بيروت: دار المعرفة، ط2، 1975.

15- عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ الحَرَالِّيُّ، تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، ت: حمادي بن عبد السلام الخياطي، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ط1، 1997.

16- فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، الأردن: دار النفائس، ط3، 2010.

17- عماد عطية عبد الرازق، الأيام المقدسة في الديانات السماوية الثلاث دراسة مقارنة، القاهرة: رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2016.

18- محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، القاهرة: سينا للنشر، ط4، 1999.

19- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة: هاشم صالح، بيروت، دار الطليعة، ط2، 2005.

20- محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير)، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.

21- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.

22- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د.ت.

23- محمد جمال القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ.

24- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة: مكتبة وهبه، ط7، 2000.

25- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

26- محمد شحرور، القصص القرآني قراءة معاصرة، بيروت: دار الساقي، ط1، 2012.

27- محمد شحرور، الكتاب والقرآن، دمشق، سوريا: الأهالي للطباعة والنشر، د.ت.

28- محمد شحرور، دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، بيروت: دار الساقي، ط1، 2016.

29- منّاع القطان، مباحث في علوم القرآن، القاهرة: مكتبة وهبه،1995.